تحليل إعلامي

الحرب النفسية الفلسطينية

قفزة نوعية حققتها المقاومة الفلسطينية منذ عملية الجرف الصامد عام 2014، بانتقالها من مرحلة استعطاف الرأي العام الغربي إلى مرحلة أن تصبح مرجعية قوية بالنسبة للمستوطنين، خاصة في ظلّ تضييق الرقابة العسكرية الإسرائيلية على وسائل إعلامها، بقصد التكتم على إخفاقات جيش الاحتلال وحرصًا على معنويات الجمهور الإسرائيلي. وذلك بعدما كانت مقتصرة على وصايا المجاهدين وجنازات الشهداء.

واليوم، تتعاظم قوة الفلسطينيين في إدارة الحرب النفسية على كافة المستويات، سواء على مستوى قيادات الفصائل، أو على مستوى الشعب الفلسطيني نفسه. فالتمسك بالحق يعطي دفعًا لقوة نفسية هائلة، يترجمها المقدسيون من خلال ابتساماتهم لدى اعتقالهم، وجرأتهم في مواجهة الصهاينة بالسلاح الأبيض، سواء كان رشقًا بالحجارة أو بالدهس. أو بالجرأة على استفزاز الصهاينة في حرم القدس الشريف، من خلال الشعارات التي يرددونها. أما في غزة، فمعنويات الأطفال هي حكاية حرب نفسية فريدة، فهؤلاء يثبتون نكبة بعد نكسة، أنّ ما تعوّل عليه إسرائيل من الانهزام النفسي للأجيال الجديدة، ليس إلا هزيمة واضحة الملامح للكيان الصهيوني بأكمله.

محمد الضيف: سلاح نفسي متفوّق للمقدسيين

"حط السيف قبال السيف احنا رجال محمد ضيف"، من أبرز الشعارات التي يرددها المقدسيون عند أي مواجهة مع الاحتلال أو حتى في جنازاتهم وزفات أعراسهم، لبثّ الحماس في قلوبهم، ولبثّ الرعب في قلوب قطعان المستوطنين. في المواجهات الأخيرة في حي الشيخ جراح وساحة باب العامود، قام ضابط شرطة إسرائيلي بالطلب رسميًا من الشباب: "اهتفوا لمن شئتم إلا لمحمد الضيف". فعمد المقدسيون إلى تكرار هذا الهتاف، وعمدت سلطات الاحتلال إلى اعتقالهم. يعرف الفلسطينيون جيدًا ماذا يحصل للإسرائيليين لمجرد ذكر هذا الاسم، إنه يهدد سيادتهم! حتى بات اسم الضيف مقدمة معتادة للمواجهات في القدس.

عام 2018، جلس في استديو التحليل الخاص بالقناة العاشرة الصهيونية مجموعة محللين ليتفقوا على قراءة واحدة، مفادها أن محمد الضيف هو من يقرر الحرب والسلم بين الصهاينة والفلسطينيين. وهو الذي يقرر متى تبدأ الحرب ومتى ستنتهي. "أولًا عليكم أن تعرفوا أن الاستخبارات والرقابة قررت لنا ماذا نقول، ثانيًا يقول الجيش الإسرائيلي لا تخافوا لا يوجد حرب قريبة، هذا ما أستطيع أن أقوله بعد تدخل الرقابة العسكرية، لكن كلمة السر في الموضوع أن إسرائيل وحماس يتبادلان الرسائل عبر طرف ثالث، هيا بنا بدون حرب، أرادوا من خلال التقارير العسكرية أن يهدئونا فوتّرونا، وعيوننا على التقارير التي ليس عليها رقابة وتقول محمد الضيف هو الذي يقرر الحرب وليس أنتم". يقول المراسل العسكري في استديو التحليل. فتتدخل مديرة التحليل فتقول: "علينا أن نعرف أن محمد الضيف يأخذ وقت بين معركة ومعركة لإعداد معركة، هو لا يفكّر إلا بالمعركة"، ثم تتوجه إلى الخبير في الشاباك لتسأله عن الحلّ مع محمد الضيف، هل هو مصاب، هل فقد عينه، هل هو مقعد على كرسي؟ فأجابها "دماغه يعمل وهو مسيطر على كلّ الأمور". الواقع أن محمد الضيف، قائد الجناح العسكري لحماس، هو المهندس الأول للوعي الإسرائيلي.

الحرب النفسية الفلسطينية كاريزما بلا ملامح وجه

تقنية جديدة تسجّل براءة اختراع باسم الحرب النفسية الفلسطينية، ليس ثمة معنى لهوية الشخص الناطق باسم المقاومة الفلسطينية، والمعنى كلّه في اللثام الأحمر للكوفية الفلسطينية. شخص مجهول الهوية، يصبح أمة في رجل. رجل بلا ملامح إلا من ملامح الكوفية الضاربة جذورها في التاريخ، تملأ المكان والزمان العربي والعالمي ببيانات المقاومة. "إن قيادة المقاومة في الغرفة المشتركة تمنح الاحتلال مهلةً حتى الساعة السادسة من مساء اليوم لسحب جنوده ومغتصبيه من المسجد الأقصى المبارك وحي الشيخ جراح، والإفراج عن كافة المعتقلين خلال هبة القدس الأخيرة". يقول ذو الكوفية الحمراء. وفي إعلان آخر "بأمر من قائد هيئة الأركان أبو خالد الضيـف، يرفع حظر التجوال عن تل أبيب ومحيطها لمدة ساعتين من الساعة 10 وحتى الساعة 12 ليلا، وبعد ذلك يعودون للوقوف على رجلٍ واحدة". والوقوف على رجل واحدة هي عبارة ذات مدلول عقابي يعاقَب بها التلاميذ. إنها طريقة غير مسبوقة تحمل الكثير من معاني الإذلال والإهانة، لقد صدق المحللون في ذلك الاستديو، إنه محمد الضيف هو من يمنح الهدنة ومن يحدد التوقيت، هو من يقرر ماذا سيفعل مستوطني تل الربيع (تل أبيب بحسب المسمى الصهيوني)، لقد نقل هذا التكتيك، أي تحديد التوقيت، نقل المعركة من غزة إلى الكيان الصهيوني.

إنجازات عسكرية ونفسية تحقق أهدافها

الحرب النفسية الفلسطينية تأتي جنبًا إلى جنب الأهداف العسكرية، أو تسبقها أو تتبعها. نجحت المقاومة الفلسطينية في الأهداف الميدانية تمامًا كما نجحت في الأهداف النفسية، عاينا ذلك في عملية الجرف الصامد عام 2014 ونعاينه اليوم في سيف القدس 2021، بزخمٍ أكبر وقوة أشدّ:

- بث اليأس والوهن ليس فقط في نفوس جنود جيش الاحتلال، بل في قطعان المستوطنين، فمنهم من بدأ بالهجرة العكسية، ومنهم من بدأ بالتفكير جديًا بذلك، وهو الأمر الذي يؤثر على المستقبل الوجودي للكيان.
- تشكيك المستوطنين في قدرات جيشهم ومن خلفه دولتهم على مستوى الحماية والسياسة.
- بثّ الطمأنينة والثقة في نفوس الفلسطينيين الأمر الذي يعزز صمودهم، فقد صرحت حماس أن لديها من الصواريخ ما يكفي ل 6 أشهر لا تنتهي، فتم تقديرها بمليون صاروخ موجه إلى الكيان الصهيوني. وهو الأمر الذي يزيد الرعب والهزيمة لدى المستوطنين وحتى الجنود الصهاينة.
- إضعاف مصداقية التقارير الإسرائيلية، فالصهاينة والفلسطينيون يصدقون الإعلانات والتصريحات القادمة من غزة فقط.

استمرار حالة الإحباط المسيطرة على جمهور العدو وجيشه

الواقع أن جيش العدو لن ترتفع معنوياته لدى قصف بنك أهدافه الذي غالبًا ما يكون من المدنيين العزّل الفلسطينيين، بل إن ذلك يغرقه أكثر فأكثر في مستنقع الإحباط. خاصة وأن المقاومة الفلسطينية، وإن كانت ترد الصاع بأقل من صاع، إلا أن صاعها أكثر نوعيّة وقدرة. نظرًا لمعنويات الاحتلال الضعيفة على الرغم من تلك القوة التكنولوجية التي يتفوقون بها، ونظرًا للقوة النفسية الناجمة عن التمسك بالحق لدى الفلسطينيين.

دور مواقع التواصل الاجتماعي في الحرب النفسية الفلسطينية

كما لم يحصل من قبل، يتعرّف العالم اليوم على مظلومية الشعب الفلسطيني، حتى في الدول الغربية الأكثر تضليلًا لشعوبها والتي تمارس التأطير والتعتيم الإعلامي لتظهر الكيان الصهيوني بمظهر الضحية. وعلى الرغم من القيود التي تفرضها منصات التواصل الإلكترونية، إلا أنه لم يعد ثمة حقيقة محجوبة، وأي تعاطف مع إسرائيل فهو اليوم على مستوى الحكومات والأجهزة الرسمية، وليس على مستوى الشعوب. واقع جديد مليء بمقاطع الفيديو للأطفال الفلسطينيين أمام منازلهم المهدمة، وأخرى إنفوغرافية تظهر الحقائق التي تجري على أرض فلسطين، أو من خلال الحسابات المتداخلة التي جعلت الثقافات منفتحة على بعضها البعض.